صوت من نجيب

فهل من مجيب

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي

شيخ علماء الجزائر

حضرت قبل أسابيع حفلة تكريم للقائد الشعبي العظيم محمد نجيب ، أقامتها جمعية من الجمعيات العاملة للاسلام ، وسمعت خطباء عادية في المعنى الذي أقيمت له الحفلة ، وسمعت قطعة من الشعر ، أشهد أنه شعر حي صادق في تصوراته وتصويراته ، وأنه مس مكامن الإحساس مني حينما مس فلسطين ، وكأنما غمز من قلبي جرحا مندملا على عظم . ثم سمعت في الأخير كلمة القائد البطل ، وكان أقلها عن مصر وحركة الجيش وأسبابها وأهدافها ، وأكثرها عن فلسطين وحربها وحالة أهلها المشردين .

وأقول : القائد ، ولا أقول : الرئيس ؛ لأنني كنت أسمع كلام قائد لا كلام رئيس ، وكنت أسمع كلامه فأفهمه بمعنيين :

معنى هو الذي تفيده الألفاظ والتراكيب ، وينتقل بالسامع من خبر إلى خبر ومن وصف إلى وصف ، ومعنى آخر مساوق له ممتد معه ، وهو أن هذا الكلام نفسه قائد ... فيه من القيادة أمرها ونهيها وحزمها وصدقها وواقعها وتوجيهها ومضاؤها وجرأتها وجميع خصائصها ، فأفهم من ذلك كله أن القيادة هي صفته الذاتية ، خلقت معه مستترة في روحه ودمه ، ولونتها فطرته السليمة ، وكونتها تربيته الشعبية ، كما أن الإقدام هو صفة الأسد الذاتية التي خلقت معه ؛ فلما أدت قيادته العسكرية رسالتها وبلغت مداها انقلبت قيادة شعبية سماها العرف رياسة ، وماهي - في الحقيقة - إلا امتداد لقيادته العسكرية ، والقائد القوي الخصائص ، في الأمة الكثيرة النقائص ، لا يزال يخرج من حرب إلى حرب ، ويدخل من قتام في قتام

سمعت كلمات القائد متئدة رزينة ، فلما لمست فلسطين ظهرت شجية حزينة ، فنطق بالصدق ، ولا أصدق من شهادة الميان ، ومحمد نجيب إذا تكلم عن حرب فلسطين ، وصور نكبة فلسطين ، كان الراوية الثقة والضابط العدل . وقد حلل تلك السبة الخالدة ، وعللها باثنتين : قبول الهدنة وفقد السلاح . ثم برأ الشرف العسكري العربي كله من وصمة التخاذل ، ولم يعرج على التخاذل السياسي بين ملوك العرب وساستهم ، ولكن عده لقبول الهدنة أحد سببي النكبة ، أبلغ من التصريح ، في الاتهام والتجريح . فإن الراضين بالهدنة هم رؤساء الحكومات العربية من ملوك وساسة لا قادة الجيوش .

كانت كلمات القائد البطل عن فلسطين تمس نفسي - وهو يلقيها - مسة الكهرباء فتحرق ولا تضيء ، لأنني - يشهد الله - كنت وما زلت من أشد الناس اهتماما بالحادثة ، ثم من أشدهم التياعا بالكارثة ؛ فإذا فاتني - لشقوتي - أن أشارك في وقائعها بجسمي ، فلم يفتني أن أشارك فيها بقلمي ؛ فكتبت مقالات نارية المعنى قاسية الألفاظ تكاد تسمل

ترهب بها عين الرقيب الذي لا يسهد ولا ينام « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم »

أما بعد

فهذه هي مبادئ النهضة لمن يريد أن يفهم النهضة ؛ وهي مبادئ الإسلام لمن يريد أن يدين بالإسلام ، فابنوا حياتكم عليها ، واتخذوا « الإيمان بالله وشرعه » جنتها ، يحفظها الله لكم ويرعاها ، ويمكن لكم في الأرض ، ويجعلكم أئمة ويجعلكم الوارثين « والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

محمود شلتوت

شواظا من نار ونحاسا على المتسببين فى تلك الهزيمة المنكرة ، بغير أسبابها المعقولة عند الناس، ولكن بسبب لا يستسيغه عقل عاقل وهو قبول الهدنة ... لذلك كانت كلمات القائد تفيض من نفسه الجريحة وكأنما تفور من نفسى . حتى إذا سكت عن ساسة العرب أحسست بانفعال كنت أتمنى أن أسكته بشهادة حق من القائد الصادق عليهم تؤيد عقيدتى فيهم ؛ فإن شهادة الحق تؤيد الحق حتى لكأنه حقان

وتكلم القائد البطل عن أولئك البائسين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : وطننا فلسطين، والذين نسميهم مشردين ونحن شردناهم بما كسبت أيدينا ، ووصف وصف العايشين مايلقونه من شقاء وما يتجرعونه من غصص ؛ وبدأ صوته يرتفع ويتهدج وعيناه تغرورقان بالدموع فتشهد بأنه يغالب أسى كمينا وهما دفينا . وكانت الجمل العبقرية التى تساوى الدم الذى سال من جسمه على ثرى فلسطين هى قوله : « كيف نلتذ بالطعام ، وننعم بالليل والدفء ، وإن إخواننا ليتضورون من الجوع ، ويفترشون الغبراء ؟ لماذا لا نصوم يوما من الأسبوع عن اللحم . أو أسبوعا من الشهر عن هنة من هذه الكماليات . ثم نرصد ثمنها لإطعام إخواننا الفلسطينيين وكسوتهم ؟ إن الإمساك عن اللحم يوما من الأسبوع أو عن الكماليات أسبوعا من الشهر لا تميتنا ولكنها تحيى إخواننا » . ثم رمى السامعين بالآبدة التى ظننت أن الجباه تندى لها عرقا ، إن لم تنخلع القلوب منها فرقا ، وهى قوله « إن من العار أن نطلب لهم الحياة ممن أماتهم ، ونسأل لهم القوت من الدول العاتية التى حكمت عليهم بالموت جوعا ، وحكمت علينا بالانحناء ذلا ومهانة » .

حقائق جلاها القائد على مئات من السامعين ، وما منهم إلا من له نباهة وذكر ومقام . جلاها فى جمل حاكية ، تحتها معان باكية ؛ وشرحها الوافى ينتزع مما يتصوره المتصورون . ويصوره المصورون من حال أولئك البائسين. وينتزع من تخاذل العرب ، لوكا وحكومات وسادة وكبراء وشعوبا حتى ضاعت فلسطين وجاع أهلها ، وتنتزع من حالة المسلمين المغفلين الذين ما زالوا ـ وهم ذوو عدد ـ

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحسانا

وما زالوا يطلبون الصدقة ممن سلبهم ، وما زالوا يفزعون كلما لطمهم اليهود إلى الاحتجاج . وما زالوا يطرقون أبواب هذا الهيكل الخرب الذى يسمى جمعية الأمم المتحدة .

أنا لا أتحدث عن قلوب السامعين ومواقع كلام القائد منها . ولا أملك لها أن تكون خلية أو شجية ؛ وإنما أتحدث عن قلبى . فوالذى خلق القلوب مضغا سوداء وبث فيها شعلا من النور ، لكأنما كانت تلك الكلمات على قلبى نبالا تنثال على هدف ، ونصالا تتوالى على جريح . يالله العجب العاجب! أفيؤمن المسلم بأن المسجد الأقصى هو قبلته الأولى وأنه ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال ، وأنه كان فى ليلة من الدهر سلم الأرض إلى السماء ، ومطار البشرية المتمثلة فى محمد ، إلى الملكية المتمثلة فى الملأ الأعلى . أفيؤمن بذلك كله ثم لا يقدم لحماية هذا الحرم وجعله آمنا ـ مهجته وماله؟

إن فلسطين إرث النبوة الخاتمة، من النبوات المتقادمة، نفذ فيه عمر وصية الإسلام، وحرره أبو عبيدة وأصحابه فى الأولين من رق الرومان ورجس الأوثان ، وأدت وقائع اليرموك وأجنادين شهادتها على استحقاقنا لهذا الإرث ؛ ثم طهره صلاح الدين وجيشه فى الآخرين من أدران الصليبيين . وكانت وقائع حطين وعكا وغيرها تزكية تلك الشهادة باستحقاقنا لهذا الإرث واقتدارنا على حمايته .

إن أعمال أجدادنا فى فتح فلسطين وإرثها وحمايتها هى وصية صريحة لنا بالمحافظة عليها وحجة ناطقة علينا إن نحن قصرنا فيها أو فرطنا فى جنبها . فيا لتراث نبوى حماه الأسلاف الصالحون ، وأضاعه الأخلاف المقرطون !

ما أضاع فلسطين إلا العرب ، وقد جاءتهم النذر فما روا

بها ، ثم حق الأمر وهم غارون فاندهشوا ، ثم وقعت الواقعة فأبلسوا ، وعمد خطباؤهم إلى الخطب ينمقونها ، وشعراؤهم إلى القصائد يزوقونها ، وساستهم إلى الدعاوى يلفقونها ، وعامتهم إلى الخرافات يصدقونها ، بينما عمد ملوكهم إلى الأمداد يعوقونها ، وإلى الأهواء ينفقونها ، وعمد خصومهم اليهود إلى الغايات يحققونها ، وإلى العهود يمزقونها ، وقضى الأمر وأوسعناهم سبا وراحوا بالإبل ! وبعد أن كنا نقول : نحن أهل فلسطين ، أصبحنا نقول ما قالته الجرهمية فى مكة : بلى نحن كنا أهلها ! ولاأدرى كيف تنتصر أمة تقطعت بسوء صنيعها أمما ، ثم تدلت فى الذل حتى صارت تطلب الرحمة من معذبها ، وتعطى الدية لقاتلها ، ثم ارتكست فى السقوط حتى أصبح نصف ملوكها صبيانا ، وأكثر أدلائها عميانا .

* * *

مضت على كلمات القائد البطل أسابيع ، وأنا أتحسس وقعها فى النفوس ، وأترقب ثمرتها ، من صوم المسلمين عن الطعام يوما فى الأسبوع أو هجرهم لبعض الكماليات أسبوعا فى الشهر ورصد أثمانها لدفع الغوائل عن مشردى فلسطين ، أو لغير ذلك مما تتفتق عنه العقول من أفكار ، وتتمخض عنه الهمم من آثار ، فلم يظهر لها أثر إلا تلك الهزة التى حركت الأيدى للتصفيق ، ورسمت التأثر على الوجوه ، ونشرت شيئا من التهلل على الأسارير ، ثم لا شئ !

إن تلك الكلمة العبقرية ليست كلمة من الكلام — وإنما هى فكرة عبرت عنها ألفاظ ، ومبدأ ترجمته عبارات ، ولو كانت نفوسنا — معشر سامعيها — حية مستجيبة لفهمنا الكلمة بهذا المعنى ، ولخرجنا من الحفلة منادين بها ، داعين إليها ، شارحين لراميها ، ناشرين لها فى العالم الإسلامى ، بادئين بأنفسنا فى تنفيذها ، ولكننا قوم بنينا أمرنا على اللعب واللهو ، والخطإ والسهو ، لا على الجد والصرامة ، والعزة والكرامة ، واطمأننا إلى عادة لا تطمئن عليها الحياة ، فكل ما فى أحزاننا عويل وبكاء ، وكل ما فى أفراحنا تصدية ومكاء ، وكل استجابتنا لداعى الحق تشقق الحناجر بهتاف ، والتقاء الأيدى على تصفيق

ونبتت بعد تلك الكلمة التى لم تعها أذن واعية ، فكرة قطر الرحمة . وهى فكرة جميلة ، صحبها العزم فكانت جليلة . ورافقها التنفيذ فكانت نبيلة . وحيا الله مصر ولقى أهلها نضرة ، كما كسا أرضها خضرة ؛ ولكن قطر الرحمة ما هى إلا قطر من الرحمة . والمشردون أصبحوا بقعة إنسانية عطشى لا ترويها إلا الروائح والنوادى من سحب الخير . وأين الفكرة التى تختص بمصر من الفكرة التى تعم العالم الإسلامى ؟ إن فكرة « الصوم » لو تمت وانتشرت وصحت العزائم على جعلها عادة وموسماً لم تقف عند استحياء المشردين وكفكفة دموعهم ، بل كانت تنسل الخزى وترحض العار ، وتسلح جيشاً لاسترداد فلسطين

* * *

أيها العرب : هاهم أولاء إخوانكم المشردون على غلوة سهم منكم ، لو تسمعتم لسمعتم أنينهم من الألم يتردد ، وحنينهم إلى الديار يتجدد ، ودعاءهم إلى الله يرتفع على كل من أضاعهم وأجاعهم

إنهم إخوانكم . وإنها أعراضكم . والقرابة موضع الثواب والعقاب عند الله . والعرض محل المدح والذم عند الناس . وإنهم انسلخوا من الزمان ، فلا ماضى ولا حال ولا مستقبل . فهل تأمنون أن يبقى أبناؤهم الناشئون فى هذه الحالة على الإسلام والعروبة ؟ وهل تأمنون أن يطول عليهم الأمد ، ويستحكم فيهم اليأس منكم ، فيبايعون اليهود على العبودية المؤبدة ؟

أيها العرب : ساء مثلا من أفهمكم من معانى العروبة أنها نسبة إلى جنس ، واعتزاء إلى جد ، والتصاق برقعة من الأرض . فعاجلوا هذا السطر الخاطئ بالمحو والشطب . وخذوا العروبة على أنها ليست جلدة تسمر أو تصفر ، ولا بلدة تغبر أو تخضر . وليست متاعا مما يرث الوارثون .